مناظرة القنائي والسيرافي

من المناظرات الجليلة باسلوبها وجمال لفظها ما جرى بين متى بن يونس القنائي وبين أبي سعيد السيرافي نقتبسها من الجزء الثالث من معجم الأدباء لياقوت الذي صدر مؤخراً ليطلع القراء على ذكاء فيلسوف وأفكار نحوي وها نحن نقدم قبل ايراد المناظرة مختصر ترجمة المتناظرين ونقل كلامهما ليكون القارئ على بينة من بعض اعلامه

اما متى(١) بن يونس ابو بشر وهو من اهل دير قنى ممن نشأ في اسكول مرماري قرأ على قويرى وعلى روفيل وبنيامين ويحيى المروزي وعلى ابي احمد بن كرنيب وله تفسير من السرياني الى العربي واليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره وكان نصرانياً وتوفي ببغداد يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وثلثمائة وله من الكتب مقالة في مقدمات صدر بها كتاب انولوطيقا كتاب المقاييس الشرطية شرح كتاب ايساغوجي لفرفوريوس

واما ابو سعيد الحسن السيرافي فيتلخص مما قاله ياقوت في معجم الادباء ان سيراف بلد على ساحل البحر من فارس كان ابوه مجوسياً اسمه بهزاد فسماه ابو سعيد عبد الله وقال ابو حيان في كتابه الذي الفه في تقريظ الجاحظ عمرو بن بحر وقد ذكر جماعة من الائمة كانوا يتشيعون للجاحظ ويتعصبون له فقال : ومنهم ابو سعيد السيرافي شيخ الشيوخ وامام الائمة معرفة بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافي والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة افتى في جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب ابي حنيفة فما وجد له خطأ ولا عثر منه على زلة وقضى ببغداد وشرح كتاب سيبويه في ثلاثة آلاف ورقة بخطه في السليماني فما جاراه فيه احد ولا سبقه الى تمامه انسان هذا مع الثقة والديانة والامانة والرزانة صام اربعين سنة او اكثر الدهر كله ومات سنة ٣٦٨

هذا اما ابو حيان التوحيدي فهو المتكلم الصوفي صاحب المصنفات ومنها كتاب البصائر والاشارات ونحوهما وكتاب المقابسات(٢) وكان اماماً(٣) في النحو واللغة والتصريف فقيهاً مؤرخاً وصفه ابن النجار بانه كان فقيراً صابراً متديناً وانه كان صحيح العقيدة الا ان بعض المؤرخين رموه بالكذب والقدح في الشريعة والمجاهرة بالبهتان وانه تعرض لامور جسام

---

(١) تاريخ الاطباء (٢) المقتبس م ١ ص ٣٠٢ (٣) طبقات الشافعية الكبرى

والقدح في الشريعة والقول بالتعطيل قال ابن فارس : ولقد وقف سيدنا الصاحب كافي الكفاة على بعض ما كان يدخله ويخفيه من سوء الاعتقاد فطلبه ليقتله فهرب والتجأ الى اعدائه ونفق عليهم بزخرفه وافكه ثم عثروا منه على قبيح دخلته وسوء عقيدته وما يبطنه من الالحاد ويرومه في الاسلام من الفساد وما يلصقه باعلام الصحابة من القبائح ويضيفه الى السلف الصالح من الفضائح فطلبه الوزير المهلبي فاستتر منه ومات في الاستتار . وعده ابو الفرج ابن الجوزي في تاريخه احد زنادقة الاسلام الثلاثة وهم ابن الراوندي وابو حيان التوحيدي وابو العلاء قال واشدهم على الاسلام ابو حيان لانه مجمجم ولم يصرح . قال السبكي انه وقع على كثير من كلامه فلم يجد فيه الا ما يدل على انه كان قوي النفس مزدرياً باهل عصره ولا يوجب هذا القدر . قلنا وما كان طلب الصاحب ابن عباد لابي حيان الا لان هذا وضع كتاباً (1) سماه مثالب الوزيرين ضمنه معايب ابي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد وتحامل عليهما وعدد نقائصهما ومن كتبه ايضاً الامتاع والمؤانسة في مجلدين وكتاب الصديق والصداقة وكان موجوداً في السنة الاربعمائة .

واليك الآن هذه المناظرة الغريبة :

قال ابو حيان : ذكرت للوزير مناظرة جرت في مجلس الوزير ابي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات بين ابي سعيد السيرافي وابي بشر متى واختصرتها فقال لي اكتب هذه المناظرة على التمام فان شيئاً يجري في ذلك المجلس النبيه بين هذين الشيخين بحضرة اولئك الاعلام ينبغي ان يغتنم سماعه وتوعى فوائده ولا يتهاون بشيء منه فكتبت : حدثني ابو سعيد بلمع من هذه القصة فاما علي بن عيسى النحوي الشيخ الصالح فانه رواها مشروحة قال : لما انعقد المجلس سنة عشرين وثلثمائة قال الوزير ابن الفرات للجماعة : (وفيهم الخالدي وابن الاخشيد والكندي وابن ابي بشر وابن رباح وابن كعب وابو عمرو قدامة بن جعفر والزهري وعلي بن عيسى بن الجراح وابو فراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهاشمي وابن يحيى العلوي ورسول ابن طغج من مصر والمرزباني صاحب بني سامان) اريد ان ينتدب منكم انسان لمناظرة متى في حديث المنطق فانه يقول لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من

---

(1) ابن خلكان في وفيات الاعيان

الشبهة والشك من اليقين الا بما حويناه من المنطق وملكناه من القيام[1] واستفدناه من واضعه على مراتبه وحدوده واطلعنا عليه من جهة اسمه على حقائقه . فاحجم القوم واطرقوا فقال ابن الفرات : والله ان فيكم لمن يفي بكلامه ومناظرته وكسر ما يذهب اليه واني لاعدكم في العلم بحاراً وللدين واهله انصاراً وللحق وطلابه مناراً فما هذا التغامز والتلامز اللذان تجلون عنهما . فرفع ابو سعيد السيرافي رأسه وقال : اعذر ايها الوزير فان العلم المصون في الصدور غير العلم المعروض في هذا المجلس على الاسماع المصيخة والعيون المحدقة والعقول الجامدة[2] والالباب الناقدة لان هذا يستصحب الهيبة والهيبة[3] مكسرة ويجتلب الحياء والحياء مغلبة وليس البراز في معركة خاصة كالمصاع في بقعة عامة . فقال ابن الفرات : انت لها يا ابا سعيد فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك والانتصار لنفسك راجع على الجماعة بفضلك . فقال ابو سعيد : مخالفة الوزير فيما يأمر به هجنة والاحتجاز عن رأيه اخلاد الى التقصير ونعوذ بالله من زلة القدم واياه نسأل حسن التوفيق في الحرب والسلم ثم واجه متى فقال : حدثني عن المنطق ما تعني به فانا اذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه ورد خطائه على سنن مرضي وعلى طريقة معروفة . قال متى : اعني به انه آلة من الآلات يعرف به صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه كالميزان فاني اعرف به الرجحان من النقصان والشائل من الجانح . فقال له ابو سعيد : اخطأت لان صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالعقل ان كنا نبحث بالعقل هبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن من لك[4] بمعرفة الموزون اهو حديد او ذهب او شبه او رصاص وأراك بعد معرفة الوزن فقيراً الى معرفة جوهر الموزون والى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدها فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك وفي تحقيقه كان اجتهادك الا نفعاً يسيراً من وجه واحد وبقيت عليك وجوه فانت كما قال الاول

حفظت شيئاً وغابت عنك اشياء

وبعد فقد ذهب عليك شيء هاهنا ليس كل ما في الدنيا يوزن بل فيها ما يوزن وفيها ما يكال وفيها ما يذرع وفيها ما يمسح وفيها ما يحزر وهذا وان كان هكذا في الاجسام المرئية فانه ايضاً على ذلك في المعقولات المقروءة والاحساس[5] ظلال العقول وهي

---

(١) لعله البيان (٢) كذا بالاصل (٣) ق — (٤) ق ذلك
(٥) لعله والاجسام

تحكيها بالتبعيد والتقريب مع الشبه المحفوظ والمماثلة الظاهرة ودع هذا اذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة اهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها من اين يلزم الترك والهند والفرس والعرب ان ينظروا فيه ويتخذوه حكماً لهم وعليهم وقاضياً بينهم ما شهد له (١) قبلوه وما انكره (٢) رفضوه . قال متى : انما لزم ذلك لان المنطق بحث عن الاغراض المعقولة والمعاني المدركة وتصفح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة والناس في المعقولات سواء الا ترى ان اربعة واربعة ثمانية عند جميع الامم وكذلك ما اشبهه . قال ابو سعيد : لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتباينة الى هذه المرتبة البينة في اربعة واربعة انهما ثمانية زال الاختلاف وحضر الاتفاق ولكن ليس الامر هكذا ولقد موهت بهذا المثال ولكم عادة في مثل هذا التمويه ولكن ندع هذا ايضاً اذا كانت الاغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل اليها الا (٣) باللغة الجامعة للاسماء والافعال والحروف افليس قد لزمت الحاجة الى معرفة اللغة . قال : نعم . قال اخطأت : قل في هذا الموضع بلى . قال متى : بلى انا اقلدك في مثل هذا . قال ابو سعيد : فانت اذاً لست تدعونا الى علم المنطق بل الى تعلم اللغة اليونانية وانت لا تعرف لغة يونان فكيف صرت تدعونا الى لغة لا تفي بها وقد عفت منذ زمان طويل وباد اهلها وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ويتفاهمون اغراضهم بتصرفها على انك تنقل من السريانية فما تقول في معان متهولة (٤) بالنقل من لغة يونان الى لغة اخرى سريانية ثم من هذه الى لغة اخرى عربية . قال متى : يونان وان بادت مع لغتها فان الترجمة قد حفظت الاغراض وادت المعاني واخلصت الحقائق . قال ابو سعيد : اذا سلمنا لك ان الترجمة صدقت وما كذبت وقومت وما حرفت ووزنت وما جزفت ولا نقصت ولا زادت ولا قدمت ولا اخرت (٥) ولا اخلت بمعنى الخاص والعام ولا باخص الخاص ولا باعم العام وان كان هذا لا يكون وليس في طبائع اللغات ولا في مقادير المعاني فكأنك تقول بعد هذا لا حجة الا عقول يونان ولا برهان الا ما وضعوه (٦) ولا حقيقة الا ما ابرزوه . قال متى : لا ولكنهم من بين الامم اصحاب عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه وعن كل ما يتصل به وينفصل عنه وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر وانتشر ما انتشر وفشا ما فشا ونشأ ما نشأ من انواع العلم

---

(١) ق لم (٢) ق نكروه (٣) ق — (٤) لعله متحولة (٥) ق اخرت (٦) لعله وضعوه

واصحاب الصناعة ولم تجد هذا لغيرهم . قال ابو سعيد : اخطأت وتعصبت وملت مع الهوى فان العلم [١] مبثوث في العالم ولهذا قال القائل

العلم في العالم مبثوث ونحوه العاقل محثوث

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع من على جديد الارض ولهذا غلب علم في مكان دون مكان وكثرت صناعة في بقعة دون صناعة [٢] وهذا واضح والزيادة عليه مشغلة ومع هذا فانما كان يصح قولك وتسلم دعواك لو كانت يونان معروفة من بين جميع الامم بالعصمة الغالبة والفطرة الظاهرة والبنية المخالفة وانهم لو ارادوا ان يخطئوا ما قدروا ولو قصدوا ان يكذبوا ما استطاعوا وان السكينة نزلت عليهم والحق تكفل بهم والخطأ تبرأ منهم والفضائل لصقت باصولهم وفروعهم والرذائل بعدت عن جواهرهم وعروقهم وهذا جهل ممن يظنه بهم وعناد ممن يدعيه عليهم بل كانوا كغيرهم من الامم يصيبون في اشياء ويخطئون في اشياء ويصدقون في امور ويكذبون في امور ويحسنون في احوال ويسيئون في احوال وليس واضع المنطق يونان باسرها انما هو [٣] رجل منهم وقد اخذ عمن قبله كما اخذ عنه من بعده وليس هو حجة على هذا الخلق الكثير والجم الغفير وله مخالفون منهم ومن غيرهم ومع هذا فالاختلاف في الرأي والنظر والبحث والمسألة والجواب سنخ وطبيعة فكيف يجوز ان يأتي رجل بشيء يرفع به هذا الخلاف او يحلحله او يؤثر فيه هيهات هذا محال . ولقد بقي العالم بعد منطقه على ما كان قبل منطقه فامسح وجهك بالسلوة عن شيء لا يستطاع لانه مفتقد بالفطرة والطباع وانت لو فرغت بالك وصرفت عنايتك الى معرفة هذه اللغة التي تحاورنا بها وتجارينا فيها وتدرس اصحابك بمفهوم اهلها وتشرح كتب يونان بعادة اصحابها لعلمت انك غني عن معاني يونان كما انك غني عن لغة يونان وهاهنا مسألة : اتقول ان الناس عقولهم مختلفة وانصباؤهم منها متفاوتة . قال متى : نعم . قال : وهذا التفاوت والاختلاف بالطبيعة او الاكتساب . قال : بالطبيعة . قال : فكيف يجوز ان يكون هاهنا شيء يرتفع به الاختلاف الطبيعي والتفاوت الاصلي . قال متى : هذا قد مر في جملة كلامك آنفاً . قال ابو سعيد : فهل وصلته بجواب قاطع وبيان ناصع ودع هذا اسألك عن حرف واحد هو دائر في كلام العرب ومعانيه متميزة عند اهل العقل فاستخرج انت معانيه من ناحية منطق

---

(١) في العالم (٢) لعله بقعة (٣) ق —

ارسطاطاليس الذي تدل به (١) وتباهي بتفخيمه وهو الواو وما احكامه وكيف مواقعه وهل هو على وجه واحد او وجوه . فبهت متى وقال : هذا نحو والنحو لم انظر فيه لانه لا حاجة بالمنطقي الى النحو وبالنحوي حاجة الى المنطق لان المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ فان مر المنطقي باللفظ فبالعرض وان عبر النحوي بالمعنى فبالعرض والمعنى اشرف من اللفظ واللفظ اوضع من المعنى . قال ابو سعيد : اخطأت لان المنطق والنحو واللفظ والافصاح والاعراب والانباء والحديث والاخبار والاستخبار والعرض والتمني والحض والدعاء والنداء والطلب كلها من واد واحد بالمشاكلة والمماثلة الا ترى ان رجلا لو قال نطق زيد بالحق ولكن ما تكلم بالحق وتكلم بالفحش ولكن ما قال الفحش واعرب عن نفسه ولكن ما افصح وابان المراد ولكن ما اوضح او فاه بحاجته ولكن ما لفظ او اخبر ولكن ما انبأ لكان في جميع هذا محرفاً ومناقضاً وواضعاً للكلام في غير حقه ومستعملا اللفظ على غير شهادة من عقله وعقل غيره والنحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة وانما الخلاف بين اللفظ والمعنى ان اللفظ طبيعي والمعنى عقلي ولهذا كان اللفظ بائداً على الزمان يقفو اثر الطبيعة باثر آخر من الطبيعة ولهذا كان المعنى ثابتاً على الزمان لان مستملي المعنى عقل والعقل الهي ومادة اللفظ طينية وكل طيني متهافت وقد بقيت انت بلا اسم لصناعتك التي (٢) تنتحلها وآلتك التي تزهى بها الا ان تستعير من العربية لها اسماً فتعار ويسلم لك بمقدار وان لم يكن لك بد من قليل هذه اللغة من اجل الترجمة فلا بد لك ايضاً من كثيرها من اجل تحقيق الترجمة واجتلاب الثقة والتوقي من الخلة اللاحقة بك . قال متى : يكفيني من لغتكم هذا الاسم والفعل والحرف فاني اتبلغ بهذا القدر الى اغراض قد هذبتها لي يونان . قال ابو سعيد : اخطأت لانك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير الى وصفها (٣) وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز اهلها وكذلك انت محتاج بعد هذا الى حركات هذه الاسماء والافعال والحروف فان الخطأ والتحريف في الحركات كالخطأ والفساد في المتحركات وهذا باب انت واصحابك ورهطك عنه في غفلة على ان هاهنا سراً ما علق بك ولا اسفر لعقلك وهو ان تعلم ان لغة من اللغات لا تطابق لغة اخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها في اسمائها وافعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها واستعارتها وتحقيقها وتشديدها وتخفيفها وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها ووزنها وميلها غير ذلك مما يطول ذكره وما اظن

---

(١) ق بها (٢) ق — (٣) لعله وضعها

احداً يدفع هذا الحكم او يسأل في صوابه ممن يرجع الى مسكة من عقل او نصيب من انصاف فمن اين يجب ان تثق بشيء ترجمه لك على هذا الوصف بل انت الى ان تعرف اللغة العربية احوج منك الى ان تعرف المعاني اليونانية على ان المعاني لاتكون يونانية ولاهندية [1] كما ان اللغات [2] لاتكون فارسية ولا عربية ولاتركية ومع هذا فانك تزعم ان المعاني حاصلة [3] بالعقل والفحص والفكر فلم يبق الا احكام اللغة فلم تزري على العربية وانت تشرح كتب ارسطاطاليس بها مع جهلك بحقيقتها وحدثني عن قائل قال لي حال في معرفة الحقائق والتصفح لها والبحث عنها حال قوم كانوا قبل واضع المنطق انظر كما نظروا [4] واتدبر كما تدبروا لان اللغة قد عرفتها بالمنشأ والوراثة والمعاني نقرت عنها بالنظر والرأي والاعتقاب والاجتهاد ما تقول له لايصح له هذا الحكم ولا يستتب هذا الامر لانه لم يعرف هذه الموجودات من الطريقة التي عرفتها انت ولعلك تفرح بتقليده لك وان كان على باطل اكثر مما تفرح باستبداده وان كان على حق وهذا هو الجهل المبين والحكم الغير مستبين . ومع هذا فحدثني عن الواو ما حكمه فاني اريد ان ابين ان تفخيمك للمنطق لايغني عنك شيئاً وانت تجهل حرفاً واحداً من اللغة التي تدعو بها الى الحكمة اليونانية ومن جهل حرفاً واحداً امكن ان يجهل اللغة بكمالها وان كان لايجهلها كلها ولكن يجهل بعضها فلعله يجهل ما يحتاج اليه ولا ينفعه فيه علمه بما لايحتاج اليه وهذه رتبة العامة او هي رتبة من هو فوق العامة بقدر يسير فلم يتأبى على هذا ويتكبر ويتوهم انه من الخاصة وخاصة الخاصة وانه يعرف سر الكلام وغامض الحكمة وخفي القياس وصحيح البرهان وانما سألتك عن معاني حرف واحد فكيف لو نثرت عليك الحروف كلها وطالبتك بمعانيها ومواضعها التي لها بالحق والتي لها بالتجوز وسمعتكم تقولون « في » لايعلم النحويون مواقعها وانما يقولون هي للوعاء كما يقولون ان الباء للالصاق وان « في » تقال على وجوه يقال الشيء في الوعاء والاناء في المكان والسائس في السياسة والسياسة في السائس الا ترى هذا التشقيق [5] هو من عقول يونان ومن ناحية لغتها ولا يجوز ان يعقل هذا بعقول الهند والترك والعرب فهذا جهل من كل من يدعيه وخطل من القول الذي افاض النحوي اذ قال « في للوعاء » فقد افصح في الجملة عن المعنى الصحيح وكنى مع ذلك عن الوجوه التي تظهر بالتفصيل ومثل هذا كثير وهو كاف في موضع السكيت . فقال

---

[1] في هندية [2] الملة « الأغراض » [3] في حاصلها [4] الطرث [5] كذا بالأصل

ابن الفرات ايها الشيخ الموفق اجبه بالبيان عن مواقع الواو حتى تكون اشد في افحامه وحقق عند الجماعة ما هو عاجز عنه ومع ذلك فهو مشنّع به . فقال ابو سعيد : الواو وجوه ومواقع منها معنى العطف في قولك اكرمت زيداً وعمراً ومنها القسم في قولك والله لقد كان كذا وكذا ومنها الاستئناف كقولك خرجت وزيد قائم لان الكلام بعده ابتداء وخبر ومنها معنى رب التي هي للتقليل نحو قوله

وقاتم الاعماق خاوي المخترقن [1]

ومنها ان تكون اصلية في الاسم كقولك واقد واصل وافد وفي الفعل كقولك وجل يوجل ومنها ان تكون مقحمة نحو قول الله تعالى فلما اسلما وتله للجبين وناديناه اي ناديناه ومثله قول الشاعر

فلما اجزنا ساحة الحي وانتحى   بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل [2]

المعنى انتحى بنا ومنها معنى الحال في قوله عز وجل : ويكلم الناس في المهد وكهلا اي يكلم الناس حال صغره بكلام الكهل في حال كهولته ومنها ان تكون بمعنى حرف الجر كقولك استوى الماء والخشبة اي مع الخشبة . فقال ابن الفرات لمتى : يا ابا بشر أكان هذا في نحوك [3] . ثم قال ابو سعيد : دع هذا هاهنا مسألة علاقتها بالمعنى العقلي اكثر من علاقتها بالشكل اللفظي . ما تقول في قول القائل زيد افضل الاخوة . قال : صحيح . قال : فما تقول ان قال زيد افضل اخوته . قال : صحيح . قال : فما الفرق بينهما مع الصحة فبلح وجنح وعصب ريقه . [4] فقال ابو سعيد : افتيت على غير بصيرة ولا استبانة المسألة الاولى جوابك عنها صحيح وان كنت غافلاً عن وجه صحتها والمسألة الثانية جوابك عنها غير صحيح وان كنت ايضاً ذاهلاً عن وجه بطلانها . قال متى : بين ما هذا التهجين . قال ابو سعيد : اذا حضرت المختلفة [5] استفدت ليس هذا مكان التدريس هو مجلس ازالة التلبيس مع من عادته التمويه والتشبيه والجماعة تعلم انك اخطأت فلم تدعي ان النحوي انما ينظر في اللفظ لا في المعنى والمنطقي ينظر في المعنى لا في اللفظ هذا كان يصح لو ان المنطقي يسكت ويجيل فكره في المعاني ويرتب ما يريد في الوهم السانح والخاطر العارض والحدس الطارئ واما وهو يريغ ان يبرز ما صح له بالاعتبار والتصفح الى المتعلم والمناظر فلا بد له من اللفظ الذي يشتمل على مراده ويكون طباقاً لغرضه وموافقاً لقصده .

---

(١) البيت لروبة : فليراجع مغني ابن هشام (مصر ٢ : ٣٠) ٢ : ٣٥ (٢) البيت لامرئ القيس (٣) لعله بمنطقك (٤) لعله وغص بريقه (٥) يعني التلاميذ

قال ابن الفرات يا ابا سعيد تمم لنا كلامك في شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرة لاهل المجلس والتبكيت عاملا في نفس ابي بشر . فقال ما اكره من ايضاح الجواب عن هذه المسألة الا ملل الوزير فان الكلام اذا طال مل . فقال ابن الفرات ما رغبت في سماع كلامك وبيني وبين الملل علاقة فاما الجماعة فحرصها على ذلك ظاهر . فقال ابو سعيد : اذا قلت زيد افضل اخوته لم يجز واذا قلت زيد افضل الاخوة جاز والفصل بينهما ان اخوة زيد هم غير زيد وزيد خارج من جملتهم وذلك دليل [1] انه لو سأل سائل فقال من اخوة زيد لم يجز ان تقول زيد وعمرو وبكر وخالد وانما تقول بكر وعمرو وخالد ولا يدخل زيد في جملتهم فاذا كان زيد خارجا عن اخوته صار غيرهم فلم يجز ان يكون افضل اخوته كما لم يجز ان يكون حمارك افضل البغال لان الحمار غير البغال كما ان زيداً غير اخوته فاذا قلت زيد افضل الاخوة جاز لانه احد الاخوة والاسم يقع عليه وعلى غيره فهو بعض الاخوة الا ترى انه لو قيل من الاخوة عددته فيهم فقلت زيد وعمرو وبكر وخالد فيكون بمنزلة قولك حمارك افره الحمير لما كان على ما وصفنا جاز ان يضاف الى واحد منكور يدل على الجنس فتقول زيد افضل رجل وحمارك افره حمار فيدل رجل على الجنس كما دل الرجال وكما في عشرين درهما ومائة درهم . فقال ابن الفرات : ما بعد هذا البيان مزيد ولقد جل علم النحو عندي بهذا الاعتبار وهذا الاسفار . فقال ابو سعيد : معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك وان زاغ شيء عن النعت فانه لا يخلو من ان يكون سائغا [2] بالاستعمال النادر والتأويل البعيد او مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم فاما ما يتعلق باختلاف لغات القبائل فذلك شيء مسلم لهم ومأخوذ عليهم وكل ذلك محصور بالتتبع والرواية والسماع والقياس المطرد على الاصل المعروف من غير تحريف وانما دخل العجب على المنطقيين لظنهم ان المعاني لا تعرف ولا تستوضح الا بطريقهم ونظرهم وتكلفهم فترجموا لغة هم فيها ضعفاء ناقصون بترجمة اخرى هم فيها ضعفاء ناقصون وجعلوا تلك الترجمة صناعة وادعوا على النحويين انهم مع اللفظ لا مع المعنى . ثم اقبل ابو سعيد على متى فقال : الا تعلم يا ابا بشر ان الكلام اسم واقع على اشياء قد ائتلفت بمراتب

---

[1] لعله ودليل ذلك [2] ق سائغا

مثال ذلك انك تقول هذا ثوب والثوب يقع على اشياء بها صار ثوباً لانه بنسجه بعد ان غزل فسداته لاتكفي دون لحمته ولحمته لاتكفي دون سداته ثم تأليفه كنسجه وبلاغته كقصارته ودقة سلكه كرقة لفظه وغلظ غزله ككثافة حروفه ومجموع هذا كله ثوب ولكن بعد تقدمة كل ما يحتاج اليه فيه . قال ابن الفرات : سله يا ابا سعيد عن مسألة اخرى فان هذا كلما توالى عليه بان انقطاعه وانخفض ارتفاعه في المنطق الذي ينصره والحق الذي لا يبصره . قال ابو سعيد : ما تقول في رجل قال لهذا عليّ درهم غير قيراط . قال متى : مالي علم بهذا النمط . قال : لست نازعاً عنك حتى يصح عند الحاضرين انك صاحب مخرقة وزرق هاهنا ما هو اخف من هذا قال رجل لصاحبه : بكم الثوبان المصبوغان وقال آخر : بكم ثوبان مصبوغان وقال آخر : بكم ثوبان مصبوغين بين هذه المعاني التي تضمنها لفظ لفظ . قال متى : لو نثرت انا ايضاً عليك من مسائل المنطق شيئاً لكانت حالك كحالي .

قال ابو سعيد : اخطأت لانك اذا سألتني عن شيء انظر فيه فان كان له علاقة بالمعنى وصح لفظه على العادة الجارية اجبت ثم لا ابالي ان يكون موافقاً او مخالفاً وان كان غير متعلق بالمعنى رددته عليك وان كان متصلاً باللفظ ولكن على موضع لكم في الفساد على ما حشوتم به كتبكم رددته ايضاً لانه لا سبيل الى احداث لغة مقررة بين اهلها ما وجدنا لكم الا ما استعرتم من لغة العرب كالسبب والا[1] والموضوع والمحمول والكون والفساد والمهمل والمحصور وامثلة لا تنفع ولا تجدي وهي الى العي اقرب وفي الفهاهة اذهب ثم انتم هؤلاء في منطقكم على نقص ظاهر لانكم لا تفون بالكتب ولا هي مشروحة وتدعون الشعر ولا تعرفونه وتذكرون الخطابة وانتم عنها في منقطع التراب وقد سمعت قائلكم يقول الحاجة ماسة الى كتاب البرهان فان كان كما قال فلم قطع الزمان بما قبله من الكتب وان كانت الحاجة قد مست الى ما قبل البرهان فهي ايضاً ماسة الى ما بعد البرهان والا فلم صنف ما لا[2] يحتاج اليه ويستغنى عنه هذا كله تخليط وزرق وتهويل ورعد وبرق وانما بودكم ان تشغلوا جاهلاً وتستذلوا عزيزاً وغايتكم ان تهولوا بالجنس والنوع والخاصة والفصل والعرض والشخص وتقولوا الهلية والاينية والماهية والكيفية والكمية والذاتية والعرضية والجوهرية والهيولية والصورية والايسية والليسية والنفسية ثم تتطاولون وتقولون جئنا بالسحر في قولنا : لا في اي من باء وراو وجيم في بعض باء وباء في بعض

---

[1] لعله والآلة [2] ق —

ح ولا في كل ب ح في كل ب فاذن لا في كل ح[١] وهذا[٢] طريق الخلف[٣] وهذا طريق الاختصاص وهذه كلها خرافات وترهات ومغالق وشبكات ومن جاد عقله وحسن تمييزه ولطف نظره وثقب رأيه وانارت نفسه استغنى عن هذا كله بعون الله وفضله وجودة العقل وحسن التمييز ولطف النظر وثقوب الرأي وانارة النفس من منائح الله البينة[٤] ومواهبه السنية يختص بها من يشاء من عباده وما اعرف لاستطالتكم بالمنطق وجهاً وهذا الناشئ ابو العباس قد نقض عليكم وتتبع طريقكم وبين خطأكم وابرز ضعفكم ولم تقدروا الى اليوم ان تردوا عليه كلمة واحدة مما قال وما زدتم على قولكم لم يعرف اغراضنا ولا وقف على مرادنا وانما تكلم على وهم وهذا منكم لجأة الى الحيرة ورضى بالعجز والنكول وكل ما ذكرتم في الموجودات فعليكم فيه اعتراض هذا قولكم في فعل وينفعل ولم تستوضحوا فيهما مراتبهما ومواقعهما ولم تقفوا على مقاسمهما لانكم قنعتم فيهما بوقوع الفعل من يفعل وقبول الفعل من ينفعل ومن وراء ذلك غايات خفيت عليكم ومعارف ذهبت عنكم وهذا حالكم في الاضافة فاما البدل ووجوهه والمعرفة واقسامها والنكرة ومراتبها وغير ذلك مما يطول ذكره فليس لكم فيه مقال ولا مجال وانت اذا قلت لانسان كن منطقياً فانما تريد كن عقلياً او عاقلاً او اعقل ما تقول لان اصحابك يزعمون ان النطق هو العقل وهذا قول مدخول لان النطق على وجوه انتم منها في سهو واذا قال لك آخر كن نحوياً لغوياً فصيحاً فانما يريد افهم عن نفسك ما تقول ثم رم ان يفهم عنك غيرك وقدر اللفظ على المعنى فلا يفضل عنه هذا اذا كنت في تحقيق شيء على ما هو به فاما اذا حاولت فرش المعنى وبسط المراد فاجل اللفظ بالروادف الموضحة والاشباه المقربة والاستعارات الممتعة وسدد المعاني بالبلاغة اعني لوح منها شيئاً حتى لا تصاب الا بالبحث عنها والشوق اليها لان المطلوب اذا ظفر به على هذا الوجه عز وجل وكرم وعلا واشرح منها شيئاً حتى لا يمكن ان يمترى فيه او يتعب في فهمه او يعرج[٥] عنه لاغتماضه فهذا المذهب يكون جامعاً لحقائق الاشياء ولاشباه الحقائق وهذا باب ان استقصيته خرج عن نمط ما نحن عليه في هذا المجلس على اني لا ادري ايؤثر ما اقول ام لا [illegible] بالنطق على مختلفين [illegible] [illegible] الواحد اكثر من واحد

---

[١] الصواب هو : لا في شيء من ب وفي ح في بعض ب فاذن لا في كل ح ، ولا في كل ب ، ح في كل ب فاذن في بعض ح [٢] الصواب : وذلك [٣] لعله الخلاف

[٤] لعله السنية [٥] لعله يخرج

وان الذي هو اكثر من واحد هو واحد وان الشرع ما تذهب اليه والحق ما تقوله هيهات ها هنا امور ترتفع عن دعوى اصحابك وهذيانهم وتدق عن عقولهم واذهانهم ودع هذا ها هنا مسألة قد اوقعت خلافاً فارفع ذلك الخلاف بمنطقك قال قائل « لفلان من الحائط الى الحائط » ما الحكم فيه وما قدر المشهود به لفلان فقد قال ناس له الحائطان معاً وما بينهما وقال آخرون : له النصف من كل منهما وقال آخرون : له احدهما هات الآن آيتك الباهرة ومعجزتك القاهرة وانى لك بهما وهذا قد بان بغير نظرك ونظر اصحابك ودع ايضاً قال قائل « من الكلام ما هو مستقيم حسن ومنه ما هو مستقيم كذب ومنه ما هو خطأ » فسر هذه الجملة واعترض عليه عالم آخر فاحكم انت بين هذا القائل والمعترض وارنا قوة صناعتك التي تميز بها بين الخطأ والصواب وبين الحق والباطل فان قلت كيف احكم بين اثنين احدهما قد سمعت مقالته والآخر لم يحصل عليّ (١) اعتراضه قيل لك استخرج بنظرك الاعتراض ان كان ما قاله محتملاً له ثم اوضح الحق منهما لان الاصل مسموع لك حاصل عندك وما يصح به او يطرد عليه يجب ان يظهر منك فلا تتعاسر علينا فان هذا لا يخفى على احد من الجماعة فقد بان الآن ان مركب اللفظ لا يحوز مبسوط العقل والمعاني معقولة ولها اتصال شديد وبساطة تامة وليس في قوة اللفظ من اي لغة كان ان يملك ذلك المبسوط ويحيط به وينصب عليه سوراً ولا يدع شيئاً من داخله ان يخرج ولا شيئاً من خارجه ان يدخل خوفاً من الاختلاط الجالب الفساد اعني ان ذلك يخلط الحق بالباطل ويشبه الباطل بالحق وهذا الذي وقع الصحيح منه في الاول قبل وضع المنطق وقد عاد ذلك الصحيح في الثاني بهذا المنطق وانت لو عرفت العلماء والفقهاء ومسائلهم ووقفت على غورهم في نظرهم وغوصهم في استنباطهم وحسن تأويلهم لما يرد عليهم وسعة تشقيقهم للوجوه المحتملة والكنايات المفيدة والجهات القريبة والبعيدة لحقرت نفسك وازدريت اصحابك ولكان ما ذهبوا اليه وتابعوا عليه اقل في عينك من السها عند القمر ومن الحصى عند الجبل . اليس الكندي وهو علم في اصحابك يقول في جواب مسألة « هذا من باب عدة » فعد الوجوه بحسب الاستطاعة على طريق الامكان من ناحية الوهم بلا ترتيب حتى وضعوا له مسائل من هذا وغالطوه بما اوردوه من الفلسفة الداخلة فذهب عليه ذلك الوضع فاعتقد انه (٢) مريض العقل

---

(١) ق — (٢) لعله سقط « صحيح وهو »

فقد تراجع حال النحو [illegible] عن الاصطلاحات الاجرام واسطاكالة (١) [illegible] في بابه وصوب الاشكال او يخرج من باب القدس الى ما هو من [illegible] وما تشبه (٢) الحركات الطبيعية الى الصور الهيولانية وهل هو [illegible] حدود النحو [illegible] او مباينة له في غاية الاحكام [illegible] فقال الرجل [illegible] الاشكال [illegible] الواجب من وجوه في ظاهر ملالا وجوب له في الشكل [illegible] هذا [illegible] من جميع هذا الى غاية الركاكة بالمنطق [illegible] ولا اولى من الطاريين [illegible] ذلك كله وقد مر في [illegible] التفاوت في [illegible] الاشياء [illegible] في الاختلاف في الاصول والاختلاف في الفروع [illegible] في هذا الشيخ [illegible] (٣) [illegible] عليه المرحمة والقرعة [illegible] الكرة على ابن [illegible] من باب [illegible] (٤) العارية من ملابس الاسرار الالهية لا من باب [illegible] في [illegible] البشرية ، ولقد حدثني [illegible] عنه [illegible] الشكل [illegible] الا من [illegible] وفوائد الفلسفة والشعر [illegible] الله [illegible] وتوفيقا يهتدي بهما الى القول الراجح الى التحصيل والعمل [illegible] له [illegible] . قال ابو حيان : هذا آخر ما كتبت عن علي بن عيسى [illegible] وكان ابو سعيد [illegible] من هذه اللغة [illegible] لم احفظ [illegible] ولكن كتب ذلك القوم الذين حضروا في [illegible] كانت معهم [illegible] كثير منه ، قال علي بن عيسى : [illegible] واهله يحضرون من مجلس [illegible] وفوائده [illegible] وقال له [illegible] ان الحركات التي [illegible] بها الشيخ [illegible] عيوننا [illegible] [illegible] ولا [illegible] . قال لنا علي بن عيسى : وكم كان سن ابي سعيد يومئذ [illegible] سنة [illegible] وكان له يوم المناظرة اربعون سنة وقد [illegible] الشيب [illegible] والوقار والدين والجد وهي شعار اهل الفضل والتقدم [illegible] الى الصورة [illegible] في الصدور والنفوس ومودة القلوب [illegible] . قال لنا علي بن عيسى : كان ابو علي الفسوي

---

(١) [illegible] الاجرام [illegible] (٢) [illegible] سنة (٣) [illegible] والكرة

(٤) [illegible]

حاضراً في المجلس قال : لا كان نائباً وحدث بما كان وكان المقلد لابي سعيد عَنَّ ما قاله به من هذا الخبر المشهور والثناء المذكور . قال ابو حيان : وقال لي الوزير عند منقطع هذا الحديث ذكرني شيئاً كان في نفسي واحببت ان اسألك عنه وافق عليه ابن ابي سعيد من ابي علي وابن علي بن عيسى منهما وابن المراغي ايضاً من الجماعة وكذلك المرزباني وابن شاذان وابن الوراق وابن حيويه فكان من الجواب ما تقدم ذكره

التلغراف

سعى ركضاً رسول الكهرباء   على اسلاكه فوق الهواء
جرى متدفقاً من دون صوت   كما تجري الاشعة من ذكاء
وطار بارضنا براً وبحراً   كما طارت بروق في السماء
وقد اوحى برمز جاء خطاً   بأقصى المدن يقرأ في جلاء
اصم مبلغ الاقوال دان   واخرس ناطق براد ناء
جماد كاتب من غير كف   حروفاً ليس من هذا الهجاء
به التلميح تصريح جلي   به الايجاز تطويل لراء
وليس يريه حر او برد   فيجري في المصيف وفي الشتاء
يماثل خطه الاعصاب بحر   وتياراً يهيج موج ماء
تجري في الضياء وفي الدياجي   ليوصل ما يشاء بلا وناء
يشبه في سكينته فؤاداً   يمد الجسم في خبر القضاء
كذا اسلاكه تحكي عروقاً   قد امتدت بجثمان الفضاء
واعصاباً بها الاحساس يجري   لادمغة تكون الكهرباء
تسير بطيها الانباء تحوي   عوالم ارضنا سير الهباء
فسبحان الذي اهدى عقولاً   الى كشف القناع عن الخفاء

عيسى اسكندر المعلوف

* * *